الذِّكْر والذَّاكرون

٣٥ يقولُ ربُّ العِزَّة فى الحديث القدسى:

«أنَا مَعَ عَبْدى إذَا هُوَ ذَكَرنِى ، وَتحركَتْ بِى شَفَتَاهُ»(١)

الله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذِّكْر ، فكُلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرَهم وزَادَهم ، هذه هى رغبة الكريم فى أنْ يُعطى بشرط أنْ نكون أَهْلاً للعطاء ، لأنه يريد أنْ يُعطيك أكثرَ وأكثرَ.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ (البقرة)

اذكروا الله فى كُلِّ شىء : فى نِعمه ، فى عطائه ، فى سِتْره ، فى رحمته، فى تَوْبته . فاذكرونى بالطاعة أذكرْكُم بالخير والتجليّات ، فالذِّكْر يُورِث

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٥٤٠) ، وأخرجه البخارى في صحيحه معلقًا مجزوماً به (كتاب التوحيد - باب ٤٣) وعزاه ابن حجر العسقلانى فى الفتح (١٣/ ٥٠٠) لأحمد والبخارى في خلق أفعال العباد والطبرانى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال ابن حجر : « قال ابن بطال : معنى الحديث : أنا مع عبدى زمان ذكره لى ، أى أنا معه بالحفظ والكلاءة لا أنه معه بذاته ، حيث حل العبد. ومعنى قوله « تحركت بي شفتاه » أي : تحركت باسمى لا أن شفتيه ولسانه تتحرك بذاته تعالى لاستحالة ذلك. انتهى »

اطمئنان القَلب.

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ (الرعد)

ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقرارُه وأُنْسُه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل لِيُناقِشها من جديد ، فالقلب يطمئنُّ بذكر الله ، فما أنْ يَذكرَ الله حتى يجد الاطمئنان ، ويتثبت قلبه.

ولكن الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ (الأنفال)

والوَجَلُ هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة واضطراب فى القلب ، وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ، ألاَ يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ (الرعد)

فى الحقيقة ، لا يوجد تعارضٌ بين القولين ، لأن ذِكْر الله تعالى يأتى بأحوال مُتعدِّدة ، فإنْ كان الإنسانُ مُسْرِفًا على نفسه ، فهو يرجفُ حين يذكر الله الذى خالف منهجه ، وإنْ كان الإنسان يُراعى حَقَّ الله فى كل عمل قَدْر الاستطاعة فلا بُدَّ أن يطمئن قلبُه لحظة ذِكْر الله ، لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إذن: فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مهابة وسَطْوة صفات الجلال ، والاطمئنانُ إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال.

ولذلك تجمعهما آيةٌ واحدة هى قَوْل الحقّ تبارك وتعالى : ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ... ﴿٢٣﴾** ﴾ (الزمر)

فالجلود تقشعر خوفًا ووَجَلاً ومَهَابة من الله عز وجل ، ثم تلين اطمئنانًا وطَمَعًا فى حنان المنَّانِ سبحانه وتعالى.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ(١) وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾** ﴾ (الأعراف)

والذِّكْر مرور الشىء ، إنْ كان بالبال فهو ذِكْر فى النفس ، وإنْ كان باللسان ولا يُسمع الغير ويُسمعك أنت ، فهذا ذِكْر السر ، وإنْ كان جَهْرًا ، فالمطلوب منك أنْ يكونَ دون الجَهْر ، فلا ترفع صوتك بالذِّكْر لدرجة الإزعاج.

والحق سبحانه يقول مرة : ﴿ **اذْكُرُوا اللَّهَ ... ﴿٤١﴾** ﴾ (الأحزاب)

ومرة يقول : ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ ... ﴿٢٠٥﴾** ﴾ (الأعراف)

فقوله « اذكر الله » يُشعِر سماعها التكاليف ؛ لأن الله هو المعبود ، والمعبود هو المطاع فى الأوامر والنواهى.

أما قوله « اذكر ربك » فهو تذكير لك بما حباكَ به من أفضال ، خلقك

---

(١) الأصيل: الوقت حين تصفرّ الشمس بعد العصر إلى المغرب ، وقد يُراد به العشى . والجمع أُصُل . وجمع الجمع آصال. (القاموس القويم ١/ ٢١).

وربّاك ، وأعطاك من فَيْض نعمه مَـا لا يُعَدُّ ولا يُحصَى ، فاذكر ربك ؛ لأنك إنْ لم تعشقْـه تكليفًا فأنت قـد عشقتَه لأنه مُـمِدُّك بالنِّعَم ، وسبحانه يتـفضّل علينا ويُوالينا جميعًا بالنعم.

وأضرب لك هذا المثل ـ ولله المـثَلُ الأعلى وهو منزّه عن التشبـيه ـ وأنت لك أولاد ، وتعطى لهم مصروفًا ، وحين تعطى لهم المـصروف كل شهر تجدهم لا يحرصون عـلى أنْ يروْكَ إلا كل شهر ، لكن إن كنت تعطى لهم مـصروفهم يوميًا ، فأنت تلتفت لتجدهم حولك.

فإن كنت نائمًا يدخل ابنك لغرفة نومك يسـير بجانبك ويتنحنح ليقول : إنه يحتاج لشيء موجـود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكل وجودك عَـبْدٌ لإحسان ربِّك ؟

ومـا دُمْتَ عَبْـدَ الإحـسان فـاذكـر مَنْ يُحسِن إلـيك ، اذكر ربك دائمًـا . واذكره على حالين ، اذكره تضرُّعًـا أى بذلَّة ؛ لأنك قد تذكر واحدًا بكبرياء إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلّة عبودية لمقام الربوبية.

واذكر ربك خِـيفـة أى : خائفًا مُـتضـرِّعًا ؛ لأنك كلما ذللْـتَ له يُعِزُّك ، فعبوديتك لله تعطى خَيْرَ الله لك.

والذكْر حدث ، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، والغُدوّ والآصال زمنان يسـتوعـبان الـنهار ، فـالغدوُّ هو أول النـهار ، والآصـال هو من العصـر للمغرب .

هذه الأزمنة التى يُطلب فيها الذكر ، فقبل أن تخرج للعمل فى أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة ، وفى نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليُزيح عنك متاعب هذا اليوم.

لذلك ، إياك أنْ تشغلك الحياة عن واهب الحياة ، ولك أن تذكرَ ربّك وأنت تعيش مع كل عمل تؤدّيه وتقوم به ، وأنْ تقابل كُلَّ نتيجة للعمل بكلمة «الحمد لله »[1] وعندما ترى أى جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أنْ تقول « ما شاء الله »[2] وعندما ترى أىّ شىء يعجبك تقول «سبحان الله».

ولذلك ، حينما دعا الله خَلْقه المؤمنين به إلى صلاة الجمعة قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الجمعة)

ونعرف أن الصلاة إنما هى ذِكْر لربنا ، فماذا بعدها؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الجمعة)

أى : إياك أن يشغلك انتشارك فى الأرض وابتغاؤك من فضل الله ،

---

(١) ورد ذكر «الحمد لله» فى القرآن ٢٤ مرة ، وكلها تأتى بعد نعمة يتمها الله على خلقه مثل : خلق السماوات والأرض ـ الهداية إلى الحق ـ وهب البنين لإبراهيم ـ نزول الكتاب ـ النجاة من الظالمين ـ إذهاب الحزن .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ... ﴿٣٩﴾ ﴾ (الكهف)

والأخْـذ بأسـبـاب الدنيا عن واجـبك نحـو الله ، بل عليك أنْ تذكـرَه سـبحـانه وتعالى .

فالحق سبحـانه يطلب من المؤمنين به ـ وهو العليم ـ أن يداوموا الولاء له سبـحانه كل يوم خَـمْس مرات ، ثم بعد صـلاة الجمعـة يطالبهم بالانتـشار فى الأرض والابتـغـاء من فـضل الله تعـالى ، وينبـهنا أن نداوم على ذكـره ، فكأنه يقول :

إياكم أن تلهـيكم أعـمـالكم ومـصـالحكم الدنيـوية عن ذكـر الله[1]، أو تعتـقدوا أن ذكر الله فى المسجـد أو وقت الصلاة فقط ، بل داومـوا على ذِكْر الله فى كل أحـداث الحيـاة ، فـإنْ فعـلتُم ذلك وذكرتم الله كـثـيراً فـستكونون من المفلحين.

وذِكْر الله كـثيـراً معـناه أنك تشعـر فى كل لحظة أن الله سبـحانه وتعـالى معك، فتخشاه وتحـمده ، وتستعين به ، وهكذا تكون الصِّلة دائمةً بينك وبين الله عز وجل فى كل وقت.

إن رسول الله ﷺ وهو معصوم ومُوحىً إليه وله من الصحابة ما يطمح أىُّ عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسـول الكريم نجد بعضًا من وصفه فى حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه وأبيه سيدنا على كرم الله وجهه.

قال الحسين : يا أبى ، قُلْ لى عن مجلس رسول الله ﷺ .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (المنافقون)

قال على كرَّم الله وجهه : كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذِكْر(١) .

وفى الحديث : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذِّكر »(٢) .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمَنْ كان قائمًا فقعد فقد أدَّى حركة هى القعود ، ومَنْ كان جالسًا فقام فقد أدَّى حركة هى القيام.

فكان رسول الله ﷺ يذكر الله فى كل حركة ، شاكرًا نعمة الخالق عز وجل ، وهو يُوجِّه الإنسان إلى ذكر خالقه عندكل قيام أو قعود ، ورسولنا ﷺ يُعلّمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أنْ نذكرَ الذى خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وقد قال ﷺ : « إذا استيقظ أحدكم فليقل : الحمد لله الذى ردّ علىَّ روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لى بذكره »(٣).

فعلينا أنْ نُحسن الأدب مع الله بأنْ نذكره فى كل حركة ، فكل شىء فى

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٣) عن الحسن بن على قال : سألت خالى هند بن أبى هالة التميمى ، وقال : «رواه الطبرانى وفيه مَنْ لم يسم» وقد أخرجه أيضًا البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه النسائى فى سننه (٣/ ١٠٩) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٦١٤) من حديث عبد الله بن أبى أوفى وتمامه : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقل اللغو ، ويطيل الصلاة ، ويقصر الخطبة ، ولا يستنكف أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى له الحاجة ». قال الحاكم : «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٣) أخرجه النسائى فى «عمل اليوم والليلة» (حديث٨٧٢) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

هذا الكون باسم الله ، يتم باسم الله وبإذن من الله ، وحين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذى سخَّرْتَ ما فى الكون ليخدُمَك وينفعل لك .

وحين لا تبدأ العمل باسم الله ، فليس لك عليه جزاء فى الآخرة ، فتكون قد أخذت عطاءه فى الدنيا ، وبترْتَ أو قطعْتَ عطاءه فى الآخرة ، فإذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة فأقْبِلْ على كل عمل باسم الله .

قبل أنْ تأكلَ قُلْ باسم الله ؛ لأنه هو الذى خلق لك هذا الطعام ورزقك به، عندما تدخل الامتحان قُلْ باسم الله فيُعينك على النجاح، عندما تدخل إلى بيتك قُلْ باسم الله ؛ لأنه هو الذى يسَّر لك هذا البيت ، عندما تتزوَّج قُلْ باسم الله ؛ لأنه هو الذى خلق هذه الزوجة وأباحها لك .

فى كل عمل تفعله ابدأه باسم الله ؛ لأنها تمنعك من أىِّ عمل يُغضِب الله سبحانه وتعالى ، فأنت لا تستطيع أنْ تبدأ عملاً يُغضِب الله باسم الله ، إذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر ، أو أنْ تفعل عملاً يُغضِب الله ، وتذكرْتَ باسم الله ، فإنك ستمتنع عنه ، ستستحى أنْ تبدأ عملاً باسم الله يُغضِب الله ، وهكذا ستكون أعمالك كلُّها فيما أباحه الله .

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ ... ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (الأعراف)

والحق سبحانه يقول ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ (الإسراء)

فـاختـار هذا الاسم بالذات (الله) العَلَم على واجب الوجـود ، وهو اسمُ ذاتٍ لا يدلُّ على صفـة معينة ، لكنه يحمل فى طيـاته كُلَّ صفات الكمـال فيه، فإن كـان للأسماء الأخـرى مجال، فـالقادر فى القدرة، والحكـيم فى الحكمة ، والقابـض فى القَبْض ، والعـزيز في العزة ، فـإن لكل اسم مجـالاً وسِيـالاً، فإن (الله) هو الاسم الجامع لكل الصفات.

﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ (الإسراء)

فأىُّ اسم تدعو به ، لأن أسماءه كلها حسنى ، لكن ليكُنْ عندك ذكاء فى الدعاء ، فـتدعو بما يناسب حاجـتك ، فإنْ أردت علْمًا فـقُلْ : يا عالم علِّمنى ، وإنْ كنتَ ضعـيفًا فقُلْ : يا قـوىُّ قوِّنى ، وإنْ أردتَ العزة فقُلْ : يا عـزيز أعزَّنى وهكذا ... فإنْ أردت فقُلْ : يا الله تكفِكَ كل شىء .

والتسبيح من ذِكْر الله عَزَّ وجَلَّ ، قال تعالى :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الحجر)

فهكذا يمكن أن تُذهِبَ عنك أىَّ ضيق ، أن تُسبِّح الله، فإذا ما جافاك البشر أو ضايقك الخَـلْق، فاعلم أنك قادر علـى الأُنس بالله عن طريق التسـبيح ، ولن تجـدَ أرحم منه سـبـحـانه ، وأنت حين تُسـبِّح ربَّك فـأنت تُـنزِّهه عن كلِّ شىء وتحمده، لتعيش فى كَنَفِ رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (الصافات)

ولذلك إذا ضاق صدرُكَ فى الأسباب فاذهب إلى المُسبب.

ونحن دائمًا نقرنُ التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص فى الذات، أو فى الصفات ، أو فى الأفعال ، وسبحانه كامل فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فذاتُه لا تشبه أىَّ ذات ، وصفاته أزلية مطلقة .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ (الروم)

فكل من المساء والصباح آية منه سبحانه ، فحين تغيب الشمس ، فهذا إذْنٌ بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذنٌ بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذى لا يشارك اللهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبدًا .

فكأنَّ سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزع إلى ربه من قسوة الخَلْق ؛ ليجد الراحة النفسية ؛ لأنه يأوى إلى رُكْن شديد .

ولهذا ، فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزه عن أن يكون مثلك ، والحمد لله واجب فى كل الأوقات ، فسبحانه الذى خلق المواهب كلها لتخدمك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها ، وتحمد الله سبحانه أنه قد وهبه تلك الموهبة ، فَخَيْر تلك النعمة يصل إليك .

وحين تُسبّح بحمد الله ، فسبحانه لا يخلف وعده لك بكل الخير ، فكلُّنا قد نُخلف الوعد رغمًا عنا ، لأننا أغيار ، أما الحق سبحانه فلا يخلف وعده أبدًا، ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْت الله وحمدته .

والحق سبحانه يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٤٢)﴾ (الأحزاب)

ويقول تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ (الإسراء)

وتسبيح الله وتنزيهه ثابت لله تعالى قبل أنْ يخلقَ منْ يُنزِّهه ، وثابت لله من جميع مخلوقاته فى السماوات والأرض ، فلا تكُنْ أيها الإنسان نَشَازًا فى منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكونىّ.

فالتسبيح لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ، إلا منْ أطلعه الله عليه ، فجميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شىء ، فهى تسجد وتسبّح بالإجماع ، وأحْرى بالإنسان أنْ يكون مُنْسجمًا مع الكون فلا يشذ عنه فى تسبيحه لله وذِكرْه سبحانه .